القاموس والشاعر

للدكتور عبدالله الطيب

أجود ترتيب للمعجم العربى عندى هو الذى عليه الصحاح والمحيط واللسان والمصباح . . . هلم جرا .

والترتيب الذى عليه النهاية والفائق والأساس حسن ، ولكن فيه نصف المزية التى للنوع الأول وهو شديد الملاءمة لما خصص له من فنون البحث اللغوى ، إذ إنما كان مقصوراً فى النهاية والفائق وما أشبههم علِى غريب الحديث والأساس كأنه مقدمة للكشاف وحاشية على الفائق ولم يكن المراد منه استيعاب أكثر ما فى لغة العرب وإنما كان المراد منه تقريب أكثر أساليب بيانها الرائع دورانا فى الشعر والنثر والحديث والقرآن .

والترتيب الذى عليه التهذيب والجمهرة فيه عسر لما يتطلبه من معرفة دقيقة بالصرف والتجويد والمخارج . وكتاب العين للخليل أو الليث بن المظفر من هذا المجرى، مع أنه هو أول المعاجم، إن لم يكن كتاب أبى عمرو الشيبانى أسبق منه، وهذا من مجرى ما تقدم ذكره من معجمات البلاغة والحديث .

وفى عصرنا هذا إيثار لطريقة الفائق ومعجمات الحديث ، هذا على تحسين الظن بعصرنا أنه اقتدى بهؤلاء . والراجح، بل كأنه هو الذى لاريب فيه ، أن المنجد وما أشبهه إنما أريد بها محاكاة معجمات اللغات الإفرنجية .

ومن أقدم معجمات اللغات الإفرنجية معجم صمويل جونسون، ويجعله بعض الباحثين أول معجم وضع فى اللغة الإنجليزية، مضربين عن آخر سبقه لاعتبارهم إياه ضعيفا أو هزيلا أو ناقصا ، ومعجم جونسون كأنما قد حذى فى طريقة

● ألقى هذا البحث فى الجلسه الرابعة من جلسات المؤتمر يوم السبت ٢٥ من شوال سنة ١٤١٣ هـ الموافق ١٧ فى أبريل سنة ١٩٩٣ .

تأليفه على الصحاح ، حيث يستشهد على كل كلمة تنص من النظم أو النثر المجود، ذى شبه شديد بطريقة صحاح الجوهرى ، وقد كان نظر أدباء أوروبا فى القرن الثامن عشر الميلادى إلى روائع أدب العربية وتأليفها كثيرا وشديدا .

أما قولى سابقا إن ترتيب الصحاح عندى أجود من غيره فحجتى على ذلك أنه أعتمد على أصلين عريقين فى العربية – حرفها المجرد ، وحرفها الإيقاعى الأساسى . أما حرفها المجرد فهو أثبت ما يثبت من كلماتها وعليه مدارها أحادية كانت أو ثنائية أو ثلاثية ، وكأن الثلاثة فى العربية أصل . قال سيبويه فى باب عدة ما يكون عليه الكلم : « وأما ما جاء على ثلاثة أحرف فهو أكثر الكلام فى كل شئ من الأسماء والأفعال وغيرها ، مزيداً فيه وغير مزيد فيه ، وذلك كأنه هو الأول ثم تمكن فى الكلام ١٠ .هـ » . وقال الفارابى فى كتاب الموسيقى الكبير (ص١٠٩١) :

« والأقاويل ذوات الأجزاء منها ما نهايات أجزائها أشياء واحدة بأعيانها ومنها ما ليست نهايات أجزائها واحدة بأعيانها . ومتى كانت الأقاويل ذوات الأجزاء تتناهى أجزاؤها إلى أشياء واحدة بأعيانها ، فإن كانت غير موزونة ، فهى تسمى عند العرب أقاويل مسجوعة ، ومتى كانت موزونة سميت أقاويل ذوات قوافٍ ، فإنهم يسمون الأشياء الواحدة التى تتكرر فى نهايات الأقاويل الموزونة قوافى . والقوافى ربما كانت حروفا وربما كانت أسبابا وربما كانت أوتاداً ، وأشعار العرب فى القديم والحديث فكلها ذوات قوافٍ إلاّ الشاذ فيها وأما سائر أشعار الأمم الذين سمعنا أشعارهم فجلها غير ذوات قوافٍ ، وخاصة القديمة منها ، وأما المحدثة منها فهم يرومون بها أن يحتذوا فى نهاياتها حذو العرب . ا.هـ »

قول الفارابى هذا فيه دلالة على أن القافية وما يجرى مجراها مما تضبط به . نهايات إيقاع أجزاء الكلام؛ ذلك أيضا من أصول بيان اللغة العربية وبنية أنواع إيقاعها

لا يخفى إذن أن تـرتيب العين والتـهذيب والجمهـرة على صحة ما التـزم فيهن وفى أمثالهن فيه أضراب عن بنية هذين الأصلين المهمين جدا - المجـرد الثلاثى فما دونه ، وأواخـر الكلم اللاتى يدور عليـهن إيقـاع الأسجاع والفواصل والقوافى .

وترتيب المنجد ومـا إليه ، ليست فـيه بركة غريب الحديـث ولا أن العدد محدود معلوم فى جملتـه ، وفيه بعد قـبح التقليد وصحافية اليُسْر وعوامّيته أو عاميته .

هذا ، وزوائد مـا يلحـق بالكلمـات الأصول فى العربيـة ليست مما يشكل على طالب النظر فـى المعـجم إذ أكـثـرهن من علامـات التثنية والجـمع والنسب ، أو من الصـيغ المألوفـات الكثـيـرات الورود فى، الكلام كصيغة فـعلان فى الجمع والصفات والألفين الممدودة والمقصورة وهذا واضح.

ومـا يخلو مـعـجم من أن تعـتـرض ضروب ترتيبـه أشياء من هذا النوع . وفى المعـجم الإنجليـزى ربما ذكر بعـد الكلمـة ملحقـات مما ينتهى ب (أبل) أو (أنس) أو (أيت) . . . وهلم جرا .

هذا وصلة الشـاعـر بالمعـجم العـربى سـوى ما قـدمنا من هذين الأصلين قـوية جدا . . إذ كما أن القـافية تطلب من أجل إكـمـال إيقاع نهـايات الأبيـات ونهـايات التـصـريع وأصناف التـقسـيم والتـرصـيع الملائمات لرنة القافية ؛كقول الهذلى :-

يحمى الصحاب إِذا كان الضّرِابُ وَيَكْـ

ـفى القائلين إذا ماكُبِّل العانى

وقول الخنساء :

حمال ألوية ، شهاد أندية ،

جواب أوديةٍ ، للجيش جرّار

وقول أبى الطيب :

فنحن فى جذلٍ والروم فى وجل

والبر فى شُغُل والبحر فى خجل

وقول حبيب :

تدبير معتصم بالله منتقم

لله مرتغب فى الله مرتقب

كذلك تطلب من أجل إتمام المعنى ،مع تمام

المواءمة لذلك والاستقامة لتركيب الكلام وسلاسته . وكذلك تطلب غرائب الألفاظ فى القوافى وفى حشو البيت من أجل التحسين ومن أجل إظهار الاقتدار وإرهاب الخصوم .

نجد هذا عند قدماء الشعراء ؛مثل : امرئ القيس ،إذ فى شعره قافية الصاد والضاد وفى شعر هذيل وكان يكثر فيه الغريب الصاد والطاء والزاى .

وركب رؤبة بن العجاج الشين وأطال فى كلمة

عاذل قد أطعت بالترقيش

إلى سرّا فاطْرِقى وعيشى

فالخسر قول الكذب المنجوش

إنك إلا تقصدى تطيشى

وركب الزاى فأطال فى كلمته :

يأيها الجاهل ذو القنزى

لا توعدنى حية بالنكز

ولا امرؤ ذو جدول يلز

دعنى فقد يقرع للأضز

وركب الضاد والطاء والغين، وهى من أشرس ما يُرْكَب :

قد عجبت لبَّاسة الُمصبَّغ

أن لاح شيْبُ الشعَّر المثمغ

وعض عض الأدرد المثفثغ

بعد أفانين الشباب البرزغ

وسمى قدامة ما ركبه محمد بن علقمة التميمى فى كلمته :

أفرخ أخا كلب وأفرخ أفرح

توحيشا .

وأحسب أن لصلة الشعر بشيطان الشعرُ ،صلةً قوية بطلب الغريب والبديع وضروب الافتنان اللفظى – إذ البيان كله فيه ما يسحر ، وفي الحديث : « إن من البيان لسحرا . . . » والسحر ما حسن وحلّ منه وما خبث وحرم منه كلا ذينك قوى الصلة بالغيبيات وأجواء الطلاسم . وعلى شدة حرص ابن الأثير على السلاسة والصفاء والرونق الحضارى ، حتى لقد جعل شعراء الجاهلية والعالمية معاماهم إلا قد كانوا تمهيدا لحبيب والوليد وأبى الطيب

وشبه هؤلاء بالغرانيق الثلاثة العلى التى كان يعبدها الجاهليون ويلبون لها ، مع ما أبطله الإسلام من أمرها كل الإبطال : قال إنهم هم لات الشعر وعزاه ومناته الذين انتهت إليهم حسناته ومستحسناته - وعلى شدة حرص ابن الأثير هذه أجاز أن يجئ الغريب فى الشعر ويكون موقعه حسنا .

وأنكر المعرى سحر أصحاب النجوم فى قوله :

لو كان لى أمر يطاوع لم يشن
ظهر الطريق يد الحياة منجم
وقفت به الورهاء وهى كأنها
عند الوقوف على عرين باكم
ويقول ما اسمك واسم أمك إننى
بالظن عما فى الغيوب أترجم
يولى بأن الجن تطرق بابه
وله يدين، فصيحها والأعجم

ومع ذلك ألح على متابعة زخرف القول، الذى إنما هو من عمل سحر شياطين الشعر ، فركب لزوم ما لا يلزم فى القوافى وفى حشو الأبيات ولم يكتف بالتزام الحروف التسعة والعشرين، فالتزم أصناف الحركات والردف والتشديد وهاءات السكت وغيرها .

واستهوى عمله أصنافا من الشعراء قبله وبعده - وصنع حازمْ القرطاجنى اليونانىَ مزاجِ الأدب والنقد مقصورته . وافتن أصحاب المقصورات والوتريات والعشرينيات من مداح الرسول، صلى الله على وسلم .

ثم جاء عصرنا الحديث .

ومهد للنهضة المبدعون من شعراء شنقيط والصحراء ، كصاحب الميمية التى جارى بها حميدا ولصاحب الشمقمقية الغريبة العجيبة .

وتلا هؤلاء شعراء النهضة أنفسهم. وركب البارودى الطاء ، ولزم مذهبا من الجزالة أعيا نظيره الفحولة المتقدمين من المحدثين من لدن الأبيوردى والصفى الحلى إلى ابن الأبار وابن زمرك وفى بردة شوقى وغيرها غريب كثير .

وبلغنى أنـه- رحـمـه الله- كـان ربما جمع الكـلمات التى تصلح قـوافى لما كان مقبلاً عليه أو يريد أن يقبل عليه من نظم. وسمعت الـدكتور طه حسين- رحـمه الله يقـول: إنما كان هذا منه ترويضـا للنغم ، وليس من بـاب اسـتكراه العـمـل وتكلف الصنعة . وما يغلب على طريقة شوقى من التماس الترنم، كأنه يصحح هذا الرأى .

وقـال هارون عـبود ، فى كـتـابه : مجددون ومحبوسون ، فى بعض ما قال، ينصح به الأديب : إن القـاموس إلهك أو آله فاعبده » .

وههنا جراءة من القول - ولكن مراده من معنى المبالغة واضح .

وقد جـاء الآن مذهب أصحاب شـعر التفعـيلة . وأحسب أن هؤلاء سيحـتاجون إلى غير قاموس العـربية ، وقد قدمنا قول الفـــارابى فى المـوزون، وفى نهـــايات الأجزاء، وهو يـنقض ما هم إليـه ذاهبون وبه آخذون، ولعلهم أن يذهبـوا فى النحو مذاهب لم تعـرفها العـرب ولا يقرها ذوق لغتهم، كجمع مدير على مدراء واستعمال « فـيمـا » مكان « بينما » والإسـراف فى إتباع بعض الأفعال المتعدية حروف الجر من غير مـا كبير حاجـة إلى ذلك، كقولهم : تعرف على - وقـال صاحب الصـحاح : تعـرف الشئ أى طلبـه حـتى عـــرفـه أو شـيئا مـــن هذا المعنى .

وقال الكميت :

وإلا فقولوا غيرها تتعرفوا
نواحيها تردى بنا وهى شزب

وقال الآخر : (١)

وقالوا تعرفها المنازل من منىً
ولم أجـد فيـما اطلعت عليـه أن طه والرافـعى والعـقاد، همت علـى قبـورهم شآبيب الرحمة، قد عدّى أحدهم تعرف أو التـعـرف بعـلى، والحـمـد لله والصـلاة والسلام عـلى سيدنا رسـول الله وعلى آله وصحبه أجمعين .

عبدالله الطيب

عضو المجمع من السودان

★ ★ ★

(١) علمت مـن الشيخ الجليل عضو المجمع من السعودية الأستاذ حـمد الجاسر أن قائل هذا البيت هو مزاحم العقيلى من قصيره طويله .